دراساتٌ أدبية:

جماليات المكان في رواية "ذاكرة الجسد" لأحلام مستغانمي: دراسة تحليلية

Aesthetics of place in the novel of Ahlam Mosteghanemi: An analytical study

Nilai estetika tempat dalam novel Ahlam Mosteghanemi: Satu kajian analitikal

فرزانة حاجي‌قاسمي [*]
أحمدرضا صاعدي [*]

ملخّص البحث:
مصطلح جماليات المكان، يدرس كيفية علاقة عنصر المكان الروائي بالشخصية عاطفيا؛ لأنّ المكان في النص الروائي والأدبي ليس حيزا جغرافيا فحسب؛ بل هو عنصر فاعلي ذو حظ كبير في الحياة البشرية، وله قدرة كبيرة على جعل الشخص متأثرا فيه أكثر فأكثر. إن دراسة مثل هذه الأمور خلال الإطار السردي تكشف عن حقيقة النص وما يتركه من الآثار في القارئ. لهذا، استندت هذه الدراسة إلى المنهج الوصفي والتحليلي، وتناولت الدراسة جماليات المكان في رواية "ذاكرة الجسد" التي تظهر في سلوك البطل ومعاملاته مع الآخرين، واللغة الشعرية التي وظفتها الروائية تعبيرا عن الوطن. ومن أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسه هذه: نجد الشخصيات الروائية ذات مستويين؛ خارجي يراه الآخرون وداخلي ممثل في أفكاره وشعوره، وأنّ الذي يبرز جمالية المكان الروائي وشعريته في رواية "ذاكرة الجسد" هو إعطاء المكان صفات الأنثوية وصفات الحسية باستخدام الصناعات البديعية كالتشبيهات والاستعارات، وأنّ نظام الأمكنة السردي عند أحلام مستغانمي يتحول إلى أداة لغوية للتعبير عن سياسة الجزائر وتاريخها وثقافتها وحضارتها حتى تبقى أيامها الماضية حية للأجيال القادمة وما فيها من الشهداء الذين انصرفوا عن حياتهم لكي لا يموت وطنهم.
الكلمات المفتاحية: أحلام مستغانمي– ذاكرة الجسد– جماليات المكان – الإطار المكاني– شعرية المكان.

Abstract:

[*] طالبة ماجستير، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة أصفهان ـ إيران.
[*] أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة أصفهان ـ إيران.

The term aesthetics of the place, taught how to place element novelist relationship emotionally personality as that in place novelist and literary text not only geographically space; it is the workers of a large element of luck in human life and has a great ability to make a person more and more influenced by him .The study of such things through the narrative framework reveal the truth about the text's and don'ts of effects in the reader .For this, the article is based on descriptive analytical method, to take place in the aesthetics of the novel " Zakira Aljassad " that appear in the behavior of the hero and his dealings with others, and poetic language that was used by the novelist an expression of the nation . Among the most important results that the article concluded that the language employed in this novel, play a prominent role in a statement the concept of "aesthetic place" more than anything else.

Keywords: Ahlam Mosteghanemi - Zakira Aljassad - The aesthetic place - The frame of place –The Poetics of Space.

Abstrak:
Istilah estetka tempat mengkaji hubungan emosi di antara watak dan tempat kewujudannya. Sesuatu tempat dalam sesebuah novel bukanlah hanya satu entiti geografi tetapi satu unsur penting yang boleh mempengaruhi kehidupan manusia yang dapat membuatkannya menjdi lebih emosi. Kajian unsur-unsur sebegini dalam kerangka naratif akan menyerlahkan beberapa fakta berkenaan teks tersebut dan pengaruhnya terhadap para pembaca. Untuk tujuan ini, artikel ini dibuat berdasarkan metod deskriptif dan analisa dengan memberikan tumpuan kepada nilai estetika tempat dalam novel ‘zakira al-jasad’ yang ditampilkan dalam watak protagonis dan iteraksi beliau dengan yang lain dan juga bahasa puitis yang digunakan oleh penulis novel sebagai satu ungkapan tentang kecintaan kepada tanah air. Antara kesimpulan kajian ialah: watak novel tersebut merangkumi dua lapisan: luaran yang dilihat dan dalaman yang meyembunyikan pemikiran dan perasaannya. Nilai estetika tempat terlihat melalui pemberian watak keperempuanan dan perinciannya melalui ungkapan kiasan dan perlambangan. Keteraturan tempat dalam novel tersebut ditransformasikan melalui ungkapan bahasa untuk menyatakan aspek-aspek politik, sejarah dan bahasa Negara Algeria untuk diabadikan buat generasi yang akan datang.

Katakunci: Ahlam Mosteghanemi- Zakira al-Jasad- estetika tempat- Rangka tempat- Peotri Pedang.

مقدمة:

إنّ المرء لا يستطيع نسيان الصلة الموجودة بينه وبين البيئة التي يحيط بها في كل لحظة؛ لذلك فإن الحضور خارج الإطار المكاني أمر مستحيل؛ لأنّ المكان وما فيه من الأحدوثة حاضر دوماً في حياة الإنسان. وللمكان أثر بالغ في مصيره حالياً ومستقبلاً. بعبارة أخرى: إنّ الموضع الذي ترعرع الشخص فيه له أثر في هويته وسلوكه وتعاملاته مع الآخرين من الأقرباء والأصدقاء.

تقوم البنية الروائية بالتعبير عن إدراك الإنسان ومعرفته للإطار المكاني وجمالياته؛ فهي تبرز لنا نظرة ميتافيزيقية إلى المكان والحوادث التي تجري فيه؛ فلذلك، أطلقت على معرفة جماليات المكان وشعرياته

لفظة الإستطيقا وهي تدل على: (العلم الخاص بالمعرفة الحسية، وهي ولون من الإدراك الذي يختلف عن طريقة التفكير الصرف للعقل).[١]

ينبغي في بداية الأمر أن ندرس الجمال من وجهة اللغة وهو (مصدر الجَميل، والفعل جَمُل. وقوله عزّ وجلّ: ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون؛ أي بهاء وحسن. يقول ابن سيده: الجمال الحسن يكون في الفعل والخَلْق).[٢]

وأما الإحساس بالجمال فهو قوة فطرية تشكل علاقة الإنسان بالأشياء الأخرى في الكون، والجمال الفطري يختلف عن الجمال الأدبي–الفني (Space Literature)؛ أي أن المبدع يقوم بالمزج بين الجمال الفطري والفني؛ ليخلق صورة جديدة لم تسبقها من قبل؛ فلهذا، فإن إدراك الجمال الروائي يحتاج إلى إمعان النظر إلى قوة الخيال للمبدع، والكشف عن العلاقة الحميمة الموجودة بين الشخصية والمكان، بحيث يكون تناولها السردي مبرزاً لـ: (علاقة الأشياء الجمالية بالواقع الذي يعيش فيه [المرء] بوصفه كائناً اجتماعياً واعياً منتجاً، يجتهد بقدراته الفكرية والإبداعية ليضفي على الحياة من حوله أبعاداً جمالية فيؤثر بها ويطبعها بتجاربه ويلونها بشخصيته في محاولة منه لإدراك معطياتها الجمالية..)..[٣]

عرفنا أنّ الجمالية في النص الروائي تختلف عن الجمال الفطري الذي يكون في طبع كل إنسان؛ لأنّ الأبعاد الجمالية في الرواية تجعل قوة الخيال والوهم وسيلتين للحصول على ما ترغب النفس فيه من الأمنيات والآمال. بعبارة أخرى: إن كيفية توظيف اللغة في النص تؤدي إلى الجمالية أم اللاجمالية؛ فاختيار المفردات والعبارات للإشارة إلى عنصر المكان يوصل الروائي إلى جمالية المكان؛ ولذلك فإن (المكان حينما يكون موضوعاً جمالياً متخيلاً يكتسب خاصية الأثر المبدع الذي تؤول ملكيته إلى القارئ أولاً وأخيراً).[٤]

لا يخلو عنوان رواية **ذاكرة الجسد** من الجمالية النصية؛ إذ يدل على مكان ما، بطريقة غير مألوفة وهي التعبير عن "الجسد" بصورة شعرية؛ أي إضافة كلمة "ذاكرة" إلى "الجسد". والذاكرة كلمة تأتي بمعنى قدرة الشخص على الاحتفاظ بالمعلومات والحوادثة الماضية؛ والكاتبة نسبتها إلى الجسد لتعبر عنه بمكان بقي فيه شيء مهم من الذكريات السابقة؛ أي أن هذا الجسم يذكّر صاحبه بالأيام السالفة والحوادث المهمة التي حدثت فيها؛ مما يعني أنّ جمالية المكان تبدأ من عنوان الرواية.

خلاصة الرواية

ذاكرة الجسد رواية تحكي الوقائع المؤلمة التي وقعت طيلة حياة مقاتل مجاهد اسمه "خالد بن طوبال" الذي شارك في جبهة الثورة الجزائرية، وأصيبت ذراعه اليمنى بالجرح في إحدى مكافحاتهم أمام الجيوش الفرنسية، ثم ينتقل إلى مشفى بحدود تونس. خالد أصيب بالكآبة واليأس عندما كان محبوساً في المشفى بسبب ابتعاده عن الوطن والجبهة. طبيبه يوصيه باختيار هواية معينة تجعله مستعداً لمواصلة الحياة بيد

واحدة، فهو اختار الرسم دون علم به. الجسور المعلقة التي تعد معلماً أثرية بقسنطينة كانت أول شيء قام برسمه. قسنطينة تلك المدينة التي ولد فيها خالد وترعرع. قبل نقله إلى المستشفى طلب قائده "طاهر عبد المولى" تسجيل اسم ابنته في دائرة البلدية. خالد بعد خروجه من المستشفى زار أسرة "سي الطاهر" وتم تسجيل اسم ابنته. بعد مضي مدة في الجزائر غادرها إلى فرنسا لمواصلة فن الرسم التشكيلي بإحدى المدارس الفرنسية وفيها تعرف على موديل (عارضة أزياء) كان اسمها كاترين. قضت خمسة وعشرين عاماً في هذا العمل. وهو رسام مشهور كان يرسم الجسور فقط. يلتقي بفتاة شابة اسمها (بنت سي طاهر) في معرض الرسومات الذي أقامه في يوم من الأيام؛ وفي لقائهما هذا، اشتد حنينه إلى السنوات الماضية، بحيث أصبحت هذه الشابة تجسد له قسنطينة من جديد.

أولاً: دراسة مفهوم المكان السردي

لا نقصد من المكان في الرواية حيزاً جغرافيا سوى المكان اللغويّ اللفظي (Space Verbal) الخيالي،[٥] بل وإنما هو وليد أفكار البطل وخواطره طوال الوقت، واللحظات والثواني التي قضاها بالفرح أو بالحزن. يختلف المكان الروائي عن نظيره في العالم الواقع، ولا نجد بينهما تناسقاً؛ إذ الخيال هو الذي يقوم بتحويل الواقعية إلى العمل الأدبي، وكما نعرف فإنّ قوة الخيال من مستلزمات الأعمال الأدبية؛ فلذلك فإن (المكان الحقيقي لا يحتفظ بخصائصه كاملة عند تحوله إلى نص).[٦]

إن مفهوم الأمكنة السردية يساعد القارئ على التعرف على خفايا الشخصية الداخلية والخارجية؛ لأنّ طبيعة القراءة الدلالية للمكان توضح لنا ملامح الشخصيات؛ لذلك يمكننا اعتبار المكان بناءً، يتمّ تشكيله اعتماداً على ملامح الشخصيات ومميزاتها وطبائعها، وهذا يساعد على تجاوز المكان الهندسي إلى المكان الشعري الذي يحمل في مضمونه دلالات متنوعة، تنسجم مع البناء العام للرواية؛ لذلك نجد أن التأثير المتبادل بين الشخصية والمكان يصور لنا الحالة الشعورية التي تعيشها الشخصية، بل قد تسهم في التحولات التي تطرأ عليها.[٧] يتضمن المكان اللفظي المتخيل الدلالات والرموز والعلاقات التي لا نجدها إلا في النص السردي، وهذه الدلالات مأخوذة من الحيز الفيزيقي الذي ترعرعت الشخصية فيه، وهو المكان الحقيقي الذي لا يحتفظ بخصائصه كاملة عند تحوله إلى نص.[٨]

ثانياً: جماليات المكان والإطار المكاني في رواية ذاكرة الجسد

هناك علاقة وثيقة بين المكان السردي والواقعي؛ فالإنسان هو الذي يربط بينهما بقوته الخيالية ومشاعره ويرتبط به ارتباطاً وثيقاً؛ فدراسة المكات تعكس لنا مثول الإنسان في صورة خيالية، لأنّ هذه الشخصية ما كان لها أن تضطرب إلا في حيز جغرافي أو في مكان.[٩] يمكننا أن نوجز الكلام حول المكان الروائي بأنّه حامل لمعنى غير فيزيقي، ويعتمد على قوة الخيال، وله مقومات خاصة كنوعية الموضع والحوادث التي تجري فيه، وله أبعاد متميزة كالبعد النفسي والاجتماعي.[١٠]

تمنح دراسة عنصر المكان الروائي باعتباره حقل الرواية، فرصة جيدة للقارئ كي يدرك رد فعل الشخصيات الروائية ومعاملتها خلال مواجهتها للحوادث والمفاجآت. وبعبارة أخرى، هناك علاقة بين العلة والمعلول، وبين المكان والسلوك الشخصي؛ إذ المكان بكل خصائصه الهندسية (لا يوجد في الواقع) والسيكولوجية (انعكاس الواقعية على عالم الشخصية الباطني) يجعل الشخصية مؤثرة به، وتتفاعل معه، وتجعله ذكرى رائعة في حياته سواء أكانت مؤلمة أم مفرحة أم حزينة.

وأما بالنسبة إلى الجماليات فهناك معانٍ عديدة لعلم الجمال في المجالات المختلفة؛ ولكنّ الهدف الرئيس الذي نتابعه في دراسته هو السمو بالذات والوصول إلى درجة النشوة الكبرى، والتحرر من كل شيء محيط به حتى يحصل على حالة الوعي ويقف على التجربة الإنسانية التي يكتسبها أثناء الصراعات الداخلية عبر مواجهة أمور شتى في الأمكنة المتعددة، ويقال كذلك إنّ كل نشاط جمالي هو طريق إلى الحرية، فيه تكشف الروح بوسائل الحس عن حقيقتها، وهذا الكلام يظهر النقطة الأساسية في علم الجمال ودراسة الجمالية؛ إذ هي العواطف والأحاسيس التي نشعر بها في الفرح والحزن والغضب، وهي تقودنا إلى تجليات سلوكية تنتهي أحياناً بالأعمال الأدبية – الفنية.

بعد ذلك، يمكننا أن نرسم تخطيطاً للبنية الجمالية لعنصر المكان الروائي، وهو يتكون من عناصر ثلاثية رئيسة، وهي: (الشخصية، والمكان، والحادثة).

(ثالوث البنية الجمالية لعنصر المكان الروائي)

نلاحظ في التخطيط أعلاه أنّ جمالية المكان مقتصرة على ثلاثة عناصر (الشخصية، والحادثة، والمكان)، وهي من العناصر السردية الأساسية، وقد جعلنا عنصر "الشخصية" في رأس الثالوث؛ لأنّها بؤرة رئيسة تجذب أشعة الحادثة والمكان الساطعة نحوها على الدوام، وتعكس أشعتها عليهما.

وأما عنصر المكان في رواية **ذاكرة الجسد** فيؤدي دوراً مهماً وفاعلاً، بحيث إنّه نقطة تبدأ الرواية به وتنتهي إليه. والتخطيط أدناه، يوضح لنا هذه الجولة المكانية في الرواية:

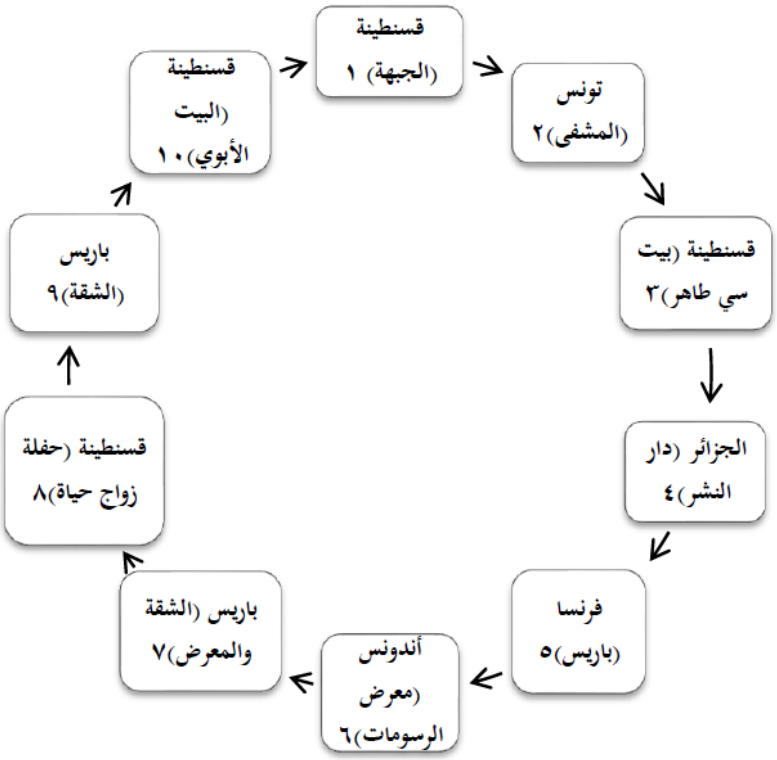

(سلسلة الأمكنة في رواية ذاكرة الجسد)

سنقوم بإيضاح كل واحد من الأمكنة المطروحة وما فيها من المواضع الأخرى المؤثرة في حياة خالد التي تثير أحاسيسه أمام الحوادث، حتى نبين مفهوم جماليتها.

١.الوطن

١,١جبهة الثورة والمشفى: خالد بوصفه مقاتلاً يجاهد في الجبهة أمام الجيوش الفرنسية، وهو يلتقي فيها بسي طاهر أكثر من قبل، ويستفيد من أفكاره وآرائه؛ لأن (سي طاهر) كان يعرف متى يبتسم، ومتى يغضب، ويعرف كيف يتكلم، ويعرف كيف يصمت. وكانت الهيبة لا تفارق وجهه ولا تلك الابتسامة الغامضة التي كانت تعطي تفسيراً مختلفاً لملامحه كل مرة.[١١]

ومن المشاكل التي واجهها خالد أثناء حضوره في الجبهة إصابته بالجرح وانتقاله إلى المشفى بعيداً عن المقاتلين الآخرين؛ حيث يقول في الرواية: (كنت أعيش في تونس، ابناً لذلك الوطن وغريباً في الوقت نفسه؛ حُرّاً ومقيداً في الوقت نفسه؛ سعيداً وتعيساً في الوقت نفسه. كنت الرجل الذي رفضه الموت ورفضته الحياة. كنت كرة صوف متداخلة.. فمن أين يمكن لذلك الطبيب أن يجد رأس الخيط الذي يحلّ به كلّ عقدي؟).[١٢]

المؤشرات: التناقض في الحالة النفسية (ابناً وغريباً، حُرّاً ومقيداً، سعيداً وتعيساً في الوقت نفسه) يجعل المرء متأثراً بالبيئة والحوادث التي قد أحاطتها، ولا يظهر هذا التأثر سوى في عبارة (كنت الرجل الذي

رفضه الموت ورفضته الحياة. كنت كرة صوف متداخلة)، وتلك العبارة تشير إلى وضعية خالد الداخلية وقد اطلع على بتر ذراعه، وليس قادراً على مغادرة المشفى إلى الجبهة والدفاع عن وطنه.

٢,١ البيت العائلي: وهو البيت الذي ولد فيه خالد وقضى أيام طفولته وشبابه هناك. والمثال الذي نجد فيه مفهوم جمالية المكان هو العبارة (كنت أشعر برغبة في البقاء في سريري في ذلك الصباح، وعدم مغادرته قبل الظهر، ربَّما بسبب متاعب البارحة، وربَّما استعداداً للسهر والمتاعب الأخرى التي تنتظرني في ذلك اليوم).[١٣]

المؤشرات: سبب عدم شعور خالد بالرغبة في الحضور في اجتماع أعضاء الأسرة يعود إلى أنّه سافر إلى قسنطينة حتى يحضر حفلة زواج "حياة"؛ في الوقت الذي هو ليس راضياً عن تزويجها من شخص لا يوافقها نفسياً واجتماعياً؛ فلهذا، كان خالد متأثراً بالمكان وبالحادثة غير المحببة إليه.

٢.المنفى

١,٢ نهر السين: وهو جزء من المنفى يرافق خالد إلى قسنطينة، ويعد النهر نقطة مهمة لإعادته، على الدوام، إلى قسنطينة؛ لأنه كان يمضي الصباح في شرفة شقّته المطلة على النهر، ومن ذلك ما وردةفي الرواية: (لم أكن أعي هذه الحقيقة قبل أن أقف منذ شهرين في هذه الغرفة مقابلاً لهذه النافذة، لأرسم بشيء من التوتّر الاستثنائي لوحتي الأخيرة.كانت عيناي تريان جسر ميرابو ونهر السين. ويدي ترسم جسراً آخر ووادياً آخر لمدينة أخرى. وعندما انتهيت، كنت رسمت قنطرة سيدي راشد ووادي الرمال، ..لا غير. وأدركت أنّنا في النهاية لا نرسم ما نسكنه..وإنّما ما يسكننا).[١٤]

المؤشرات: الجسر والنهر جزءان من المنفى وهما يرافقان خالد إلى قسنطينة، وهما نقطتان مهمتان لإعادة خالد، على الدوام، إلى قسنطينة؛ لأنه كان يمضي الصباح في شرفة شقّته المطلة على النهر، حيث يلقي خالد نظراته على الماء وجريانه وهو يذكّره بقسنطينة. بعبارة أخرى، هناك نقاط تشابه بين الوطن والمنفى، وتلك النقاط في المنفى توصل خالد إلى وطنه دون علم بها، حيث يقول كما ورد في الرواية: بأن عينيه تريان جسر ميرابو ونهر السين، وأن يديه ترسمان جسراً آخر ووادياً آخر لمدينة أخرى. إنّ العين طريقة من طرق الحصول على المعلومات من العالم الخارجي، واليد وسيلة يعبر بها الإنسان عما لديه وما يفكر به.

٢,٢ مدرسة الفن التشكيلي: وهو مكان يعرّف شخصية "كاترين" لخالد وهي نموذج من ثقافة باريس التي أثرت في روح خالد وحياته.

يقول خالد عن هذه الشخصية: (رحت أقص لأول مرة قصة تلك اللوحة التي رسمتها ذات يوم، بعد ما حضرت مرة، كما أفعل بين الحين والآخر، إحدى جلسات الرسم في مدرسة الفنون الجميلة؛ حيث يدعوني هناك بعض أصدقائي الأساتذة، كما يفعلون عادة مع بعض الرسامين؛ لألتقي بالطلبة والرسامين الهواة. كان الموضوع ذلك اليوم هو رسم موديل نسائي عار. وبينما كان جميع الطلبة متفرغين لرسم ذلك

الجسد من زواياه المختلفة، كنت أنا وبنظرة جمالية لا غير، وكأنّهم يرسمون منظرا طبيعيا أو مزهرية على طاولة، أو تمثالا في ساحة.

من الواضح، أنّني كنت الوحيد المرتبك في تلك الجلسة. فقد كنت أرى، لأول مرة، امرأة عارية هكذا تحت الضوء تغير أوضاعها، محاولة لإخفاء ارتباكي رحت أرسم أيضا؛ ولكن ريشتي التي تحمل رواسب عقد رجل من جيلي، رفضت أن ترسم ذلك الجسد، خجلاً أو كبرياء لا أدري..بل راحت ترسم شيئاً آخر، لم يكن في النهاية سوى وجه تلك الفتاة كما يبدو من زاويتي..)..[١٥]

المؤشرات: هذه الفقرات وتحديداً عبارة "ولكن ريشتي التي تحمل رواسب عقد رجل من جيلي، رفضت أن ترسم ذلك الجسد" تشير إلى التزام خالد بالمبادئ الدينية العربية التي كان شائعة في مدينته قسنطينة.

وفي بداية حضوره في مدرسة الفنون في باريس حينما يطلب منه رسم جسد امرأة عارية فقدد كان يخجل رسم زواياها، ويكتفي برسم وجهها؛ وهذا يعني أنّه مازال متأثراً بمعتقداته الدينية، كما لو كان في وطنه، ومثل هذه الحادثة (الحضور بين يدي امرأة عارية وإلتزامه برسمها تماما) تؤدي إلى ارتباك خالد وامتناعه عن رسم نموذج لموديل نسائي (امرأة عارية).

ويبرز لنا رد فعله هذا كذلك أنّ ثمّة أهمية كبيرة وتأثيراً بارز للمكان، وهو هنا الوطن، في سلوك الشخص وردود فعله أمام المفاجآت والحوادث التي يواجهها.

٢,٣ المعرض للرسومات: وهو موضع مهم جدا –بالمنفى– وله تأثير كبير للإعادة الحقيقية أو الخيالية إلى قسنطينة، وذلك المكان هو الذي يلتقي فيه خالد ابنة صديقه الحميم (سي طاهر عبدالمولى) "حياة" بعد مضي خمسة وعشرين عاماً؛ حيث شتد حبّه إليها وينتق هذا الحب إلى ميول جنسية صريحة، وقد ورد هذا المعنى في الرواية بقوله: (كان يوم لقائنا يوما للدهشة...يومها كنت أنا الرسام، وكنت أنت زائرة فضولية على أكثر من صعيد. لم تكوني فتاة تعشق الرسم على وجه التحديد. ولا كنت أنا رجلاً يشعر بضعف تجاه الفتيات اللائي يصغرنه عمراً. فما الذي قاد خطاك هناك ذلك اليوم؟...وما الذي أوقف نظري طويلاً أمام وجهك؟...لست من الحماقة القول إنّني أحببتك من النظرة الأولى. كان فيك شيء ما أعرفه. شيء ما يشدني إلى ملامحك المحببة إليّ مسبقا، وكأنّني أحببت يوماً امرأة تشبهك. أو كأنّني كنت مستعداً منذ الأزل لأحب امرأة تشبهك تماماً. كان وجهك يطاردني بين كل الوجوه، وثوبك الأبيض المتنقل من لوحة إلى أخرى، يصبح لون دهشتي وفضولي..)..[١٦]

المؤشرات: إنّ للوحات الزيتية التي يرسمها حول الجسور المعلقة في قسنطينة، دور بارز في فتح خزانة ذاكرته التي تنتشر منها رائحة المدينة المعروفة لديه؛ إذ يمكننا القول بأنه من الممكن أن يكون التصوير هو التعبير بالصور عن التجارب الشعورية التي مرّ بها الفنان، بحيث ترتسم أمام القارئ الصورة التي أراد الفنان نقلها له. وتكون أداة التصوير هي الألفاظ والعبارات لا الريشة والألوان، والتعبير الذي يرسم

للمعنى صورة أو ظلا لا يخاطب الذهن وحده، وإنّما يخاطب معه الحس والوجدان، ويثير في النّفس شتّى الانفعالات والأحاسيس.

وهذه الفتاة الشابة هي التي تشد، دون علم، على علاقة خالد بقسنطينة ورسم الجسور المعلقة أكثر فأكثر. مؤشرة تدلنا على بصمات يتركها المعرض للرسومات بوصفه مكاناً ذي أهمية كبيرة في حياة خالد؛ حيث أشار إلى أن يوم اللقاء بها كان يوما للدهشة، وكان فيها شيء ما يعرفه، وشيء ما يشده إلى ملامحها المحببة إليه مسبقاً، وكأنّه أحب يوماً امرأة تشبهها.

ثالثا: شعرية المكان في رواية ذاكرة الجسد

شعرية المكان (The Poetics Of Space) هي تقنية توظيف اللغة الشعرية في النص السردي تعبيراً عن الأمكنة الروائية، ونقصد باللغة الشعرية أنّها الاستعارات والتشبيهات والمجازات والصور الأدبية غير المألوفة لدى الناس. إنّ توظيف اللغة الشعرية في النص السردي تعد ميزة تتميز بها الروايات ما بعد الحداثة عن لغة الروايات التقليدية.

لقد قلنا بأنّ المراد باللغة الشعرية هو استخدام العبارات الاستعارية غير المألوفة لدى الناس، وهذا لا يعني أنّنا لا نجد أية استعارة في الروايات الكلاسيكية بل فيها استعارات ميتة كما يقال عن لغة الرواية التقليدية بأنّها: (كانت لغتها قائمة على التشبيهات والاستعارات، فإنّها من قبيل الاستعارات الميتة التي يحيا بها الناس العاديون ويتداولونها وتشكل جزءا من حديثهم اليومي).[١٧]

فاللغة الشعرية هي وسيلة للتعبير عن المكان داخل النص السردي بشكل يثير مشاعر الآخرين، فضلاً عن أنّها تجعل القارئ يمعن النظر إلى النص أكثر مما هو من قبل حتى يدرك أفكار الروائي ومعتقداته بالنسبة للأمكنة التي يتحدث عنها، ويختفي قصده منها وراء الكلمات والعبارات الجديدة.

فيما يأتي نضرب بعض الأمثلة التي تبين هذه النقطة في الرواية:

تقول أحلام مستغانمي: (...ها هي قسنطينة مرّة أخرى.. تلك الأم الطاغية التي تتربّص بأولادها، والتي أقسمت أن تعيدنا إليها ولو جثّة. ها هي قد هزمتنا، وأعادتنا إليها معاً..)..[١٨]

المؤشرات: قسنطينة هي أمّ تتربص بأولادها، أقسمت، هزمتنا، أعادتنا؛ أما أنواع المحسنات الأدبية الموظفة فيها فهي: التشبيه: حيث شبهت مدينة قسنطينة بالأمّ، وفي المرة الثانية بعدو يهزم طرفه الثاني.

تقول مستغانمي في موقع آخر: (هناك أشياء لم أقلها لكِ بعد. إقرئي هذا الكتاب....لقد أخذتِ منّي كلّ من أحببت، الواحد بعد الآخر، بطريقة أو بأخرى. وتحوّل القلب إلى مقبرة جماعيّة ينام فيها دون ترتيب كلّ من أحببت. وكأنّ قبر (أمّا) قد اتّسع ليضمّهم جميعاً).[١٩]

المؤشرات: إنّ خالداً يخاطب "حياة" بوصفها رمزاً رمز للوطن قسنطينة. وفي واقع الأمر إنّ "خالد" يتحدث مع وطنه الذي يحضن ذكرياته المرة، و هو يجعل قسنطينة متمثلة في حبيبته التي تكون ابنة من

استشهد من أجل استقلال الجزائر؛ أما أنواع المحسنات الأدبية الموظفة فيها، فهي: المجاز: حياة مجاز عن الجزائر وتحديدا مدينة قسنطينة.

والموقع الثالث في الرواية الذي تقول فيه مستغانمي:. (وكان الوطن في صيف ١٩٦٠ بركاناً يموت ويولد كلّ يوم، وتتقاطع مع موته وميلاده، ....وهل يمكن لي اليوم، بعدما قطعت بيننا الأيام جسور الكلام، أن أقاوم هذه الرغبة الجنونيّة..)..[٢٠]

المؤشرات: الوطن بركان، البركان يموت ويولد، جسور الكلام؛ أما أنواع المحسنات الأدبية الموظفة فيها فهي: التشبيه: الوطن شبه ببركان، والجسور بالكلمات.

والنص الرابع: (أنا..وأنت..وهذه المدينة. مدينة تواطأت معنا في التطرّف والجنون. مدينة "سادّية" تتلذّذ بتعذيب أولادها. حبلت بنا دون جهد. ووضعتنا كما تضع سلحفاة بحرّية أولادها عند شاطئ وتمضي دون اكتراث، لتسلّمهم لرحمة الأمواج والطيور البحريّة..)..[٢١]

المؤشرات: مدينة تواطأت، تتلذّذ بتعذيب أولادها، المدينة حبلت بنا، المدينة مثل السلحفاة في وضع أولادها؛ ونوع المحسنات الأدبية الموظفة فيها هي: التشبيه: قسنطينة كأمّ لها أولاد.

وفي النص الخامس تقول: (حاولت فقط أن أتعامل معكِ ومع الوطن بعشق أقلّ. واخترت اللامبالاة عاطفة واحدة نحوكما).[٢٢]

المؤشرات: أتعامل معكِ ومع الوطن. خالد يمثل وطنه الجزائر بإنسان آخر كحبيبته؛ لهذا يخاطب الحبيبة ويوضح لها كيفية تعامله معها ومع الوطن باعتباره أحداً من أقربائه. بعبارة أخرى، يجعل "خالد" الحبيبة والوطن في مستوى واحد فيتعامل معهما بقلة عشق إلى حد ما؛ ونوع المحسنات الأدبية الموظفة فيها تتمثل في: الاستعارة المكنية. المشبه: مدينة قسنطينة، المشبه به: إنسان (محذوف).

والنص السادس في الرواية يقول:. (...ها هي قسنطينة مرّة أخرى.. تلك الأم الطاغية التي تتربّص بأولادها، والتي أقسمت أن تعيدنا إليها ولو جثّة. ها هي قد هزمتنا، وأعادتنا إليها معاً..)..[٢٣]

المؤشرات: قسنطينة هي أمّ تتربص بأولادها، أقسمت، هزمتنا، أعادتنا؛ فيه محسنات أدبية موظفة فيها، وهي: التشبيه: شبهت مدينة قسنطينة بأمّ وللمرة الثانية بعدو يهزم طرفه الثاني.

النص السابع ويتمثل بالقول: (ها هي مدينة تتربّص بكلّ فاتح..تلفّ نفسها بملاءتها السوداء وتخفي سرّها عن كلّ سائح..)..[٢٤]

المؤشرات: مدينة تتربّص، تلفّ بملاءتها السوداء كامرأة، تخفي سرّها كأنّه إنسان مكنونة في صدره أسرار؛ ونوع المحسنات الأدبية الموظفة فيها هو: التشبيه: المدينة مثل امرأة.

الخاتمة:

إن جمالية المكان أمر يهتم بدور البيئة التي يعيش فيه الإنسان، وفي كيفية تكوين الهوية والتي تثير الحالات النفسية بألوانها المختلفة منها الشعور بالفرح، والحزن، والأنسة، والمعاداة، والإخفاق. ودراسة العناصر الجمالية للمكان في المجال الأدبي، وتحديداً في الرواية، تبرز لنا أنّ المبدع يبذل أقصى جهوده للتعبير عن العلاقة بين المواضع التي ترعرع فيها المرء، ومشاعره وأثرها في الحياة والقرارات المأخوذة من قبل الشخص طوال عمره، كما لاحظناها في حياة البطل خالد الذي كان يأخذ قراراته مستندا على معتقداته عن وطنه. وجدير بالذكر أنّ هنالك تأثيرات بارزة مهمة من تصورات الشخص حول الأمكنة التي قد وقعت فيها الأحداث المصيرية، وردود فعله تجاه الآخرين، فتوجد علاقة بين المكان وهوية الشخصيات ومعتقداتها بشكل مباشر. فلذلك، نجد الشخصيات الروائية ذات المستويين، المستوى الخارجي الذي يراه الآخرون والمستوى الداخلي الممثل في أفكاره وشعوره الباطنية، فبهذا الطريق يمكن للقارئ أن يتعايش مع الشخصيات خلال عملية السرد؛ فالتعايش مع الشخصيات الروائية خطوة رئيسة في فهم جماليات المكان وما يتبعه الروائي من الأمنيات والأحلام أثناء مكتوباته. والنقطة الثانية التي تجدر الإشارة إليها، هي أن الذي يشد جمالية المكان الروائي وشعريته في رواية **ذاكرة الجسد** هو إعطاء المكان صفات الأنثوية وصفات الحسية باستخدام الصناعات البديعية كالتشبيهات والاستعارات. وفي واقع الأمر إنّ نظام الأمكنة السردي عند أحلام مستغانمي يتحول إلى أداة لغوية للتعبير عن سياسة الجزائر وتاريخها وثقافتها وحضارتها، حتى تبقى أيامها الماضية حية للأجيال القادمة، وما فيها من الشهداء الذين انصرفوا عن حياتهم لكي لا يموت وطنهم. فهذا الأمر خلال الأعمال السردية لا يحقق إلا بالاتكاء إلى قوة الذاكرة التي تربط الأشخاص بالأمكنة المختلفة عبر مغادرة الوقت الحاضر إلى الوقت الماضي بالتعابير الشعرية التي تكشف عن الأحاسيس، وبصمات الأماكن التي بقيت على عالم الشخص الداخلي.

هوامش البحث:

[١] إسماعيل، عز الدين، **الأسس الجمالية في النقد العربي**، (بيروت: دارالفكر العربي، ٢٠٠١م)، ص١٤.

[٢] ابن منظور، محمد بن مكرم، **لسان العرب**، ط١، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٨م)، ج٢، ص٣٦٣.

[٣] المقدم، غادة، **فلسفة النظريات الجمالية**، ط١، (بيروت: دار جروسي برس، ١٩٩٦م)، ص١٣.

[٤] مونسي، حبيب، **فلسفة المكان في الشعر العربي: قراءة موضوعاتية جمالية**، (دمشق: اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠١م)، ص١٣٢.

[٥] عبيدى، مهدى، **جماليات المكان في ثلاثية حنا مينه**، (دمشق: وزارة الثقافة، ٢٠١١م)، ص٢٦.

[٦] كحلوش، فتيحة، **بلاغة المكان: قراءة في مكانية النص الشعري**، ط١، (بيروت: الانتشار العربي، ٢٠٠٨)، ص٢٤٣.

[٧] انظر:.صالح، ولعة، **سيميائية البنية المكانية في رواية (كراف الخطايا)**، موقع الإلكتروني:
ccessed on: 11 may 2008)(http://www.almaktabah.net/vb/showthread.php?t=26382

[٨] انظر: كحلوش، **بلاغة المكان**: قراءة **في مكانية النص الشعري**، ص٢٤٣.

[٩] انظر: مرتاض، عبد الملك، **في نظرية الرواية: بحث في تقنيات السرد**، (الكويت: سلسلة عالم المعرفة، ١٩٩٨م)، ص١٢٣.

[١٠] انظر: قاسم، سيزا أحمد، **بناء الرواية**، (بيروت: دار التنوير، ١٩٨٥م)، ص٧٤.

[١١] انظر: مستغانمي، أحلام، **ذاكرة الجسد**، ط٢٦، (بيروت: دار الآداب للنشر والتوزيع، ٢٠١٠م)، ص٣٠.

[١٢] السابق نفسه، ص٤.

[١٣] نفسه، ص٣٣١.

[١٤] نفسه، ص١٦٢.

[١٥] نفسه، ص٩٤

[١٦] ا نفسه، ص٥١.

[١٧] بلعلي، آمنة، **المتخيل في الرواية الجزائرية: من المتماثل إلى المختلف**، (الجزائر: دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٦م)، ص٥٤.

[١٨] مستغانمي، **ذاكرة الجسد**، ص٣٩١.

[١٩] ا السابق نفسه، ص٣٨٧.

[٢٠] نفسه، ص٤٧.

[٢١] ا نفسه، ص٣٣٤.

[٢٢] نفسه، ص٣٨٣.

[٢٣] نفسه، ص٣٩١.

[٢٤] نفسه، ص٣٤٤.

References:

المراجع:

ʿa**b**di ,Mahdī ,*Jamāliyāt al-Makān Fī Thulāthīyat Ḥnnā Mīnah,* (Damascus: Wazārah al-Thqāfah, 2011).

Al-Muqadim, Ghādah, *Falsafah al-Naẓriyāt al-Jamāliyah*, (Beirut: Dār Jrūsi Bris, 1996).

Būʿali, ʾāminah, *al-Mutakhaiyal Fī al-Riwāyah al-Jazāʾiriyyah Min al-Mutamāththal ʾila al-Mukhtalaf*, (Algeria: Dār al-ʾamal Lilṭibāʿah wa al-Nashr wa al-Tawzīʿ, 2006).

Ibn Manẓūr, Muḥammad Ibn Makram, *Līsān al-ʿarab*, 1st Edition, (Beirut: Dār ʾiḥyāʾ al-Turāth al-ʿarabiyy, 1998).

ʾismāʿīl, ʿiz al-Dīn, *al-ʾUṣūL al-Jamāliyyah Fī al-Naqd al-ʿarabiyy*, (Beirut: Dār al-Fikr al-ʿarabiyy, 2001).

Kaḥlūsh, Fatīḥah, *Balāghah al-Maakān: Qirāʾah Fī Makāniyah al-Naṣ al-Shiʿriyy*, 1st Edition, (Beirut: al-Intishār al-ʿarabiyy, 2008).

Mastaghnāmi, ʾaḥlām, *Dhākirah al-Jasad*, 26th Edition, (Beirut: Dār al-ʾādāb Lilnashr wa al-Tawzīʿ, 2010).

Muʾnisi, Habīb, *Falsafah al-Makān Fī al-Shiʿr al-ʿarabiyy: Qirāʾah Mawḍūʿāitayh Jamāliyah*, (Damascus: Itiḥād al-kuttāb al-ʿarab, 2001).

Murtāḍ, ʿabd al-Malik, *Fī Naẓaryaht al-Riwāyah: Buḥūth Fī Tiqniyāt al-Sard*, (Kuwait: Silsilah ʿālam al-Maʿrifah, 1998).

Qāsim, Sīzā Aḥmed, *Binā' al-Riwāyah*, (Beirut: Dār al-Tanwīr 1985).

Wilʿah, Sāliḥ, *Siymyāʾiyah al-Binyah al-Makāniyyah Fī Riwāyah "Kirāf al-Khṭāyā"*, (2008) Mawqiʿ elktrūni: **http://www.almaktabah.net/vb/showthread.php?t=26382** (accessed on: 21Jon 2013).